الاحتكام إلى المنطق القرآني في ترجيح مسائل أصول الدين

كتاب "الحق الدامغ" لأحمد حمد الخليلي أنموذجا

تمهيد:

مما تبين لي وأنا أطالع تراث إخواننا الإباضية ميلا بارزا وقويا في ترجيح مسائل الاعتقاد في أصول الدين إلى الكتاب العظيم العابر للزمن والمكان احتكاما واستلهاما للحقيقة ، وقد يتساءل البعض فما الذي يميز علماء الإباضية عن غيرهم في هذا الميدان، والكل يوضح في أصول استمداده ونظريته في المعرفة أنه إنما يحتكم إلى الكتاب والسنة، وما هذا الاختلاف في أصول الدين الذي حدث ويحدث بين طوائف الأمة من تراشق بتهم وأحكام قاسية وتنابز بالألقاب، وتباين في منازع الاستناد في المعتقدات بين إفراط وتفريط أثناء تعويلهم على النقل أو العقل.

ولسنا بالمبالغين حين نقول بأن الإباضية قد امتازوا في مباحث العقيدة وطريقتهم في فهم أصول الدين بأشياء ثلاثة تميزت بأنها قرآنية استمدادا واستنادا، وهذا حسبما يوضحه المفتي العام لسلطنة عمان الشيخ أحمد الخليلي في كتابه"الحق الدامغ" وهي[1]:

1- **سلامة المنزع:** وهذا لما جمعوا في الاستدلال على صحة المعتقد بين صحيح النقل وصريح العقل...

2- **عدم التعصب لأئمتهم** تعصبا يذرهم يتصامون عن النقول الصحيحة، أو يتعامون عن العقول الصريحة...

3- **المرونة والتسامح في معاملة سائر فرق الأمة،** فلم يخرجوا غيرهم من الملة مادام يدين بالشهادتين ولا ينكر معلوما من الدين بالضرورة...

وهي مبادئ تمتح من معين القرآن وسيرة النبي العدنان الذي كان قرآنا يمشي بين الناس.

---

[1]- ينظر: الحق الدامغ، أحمد بن حمد الخليلي، ص ص 10-12.

ولعل من المسائل التي دعت طلاب العلم والمعرفة القضايا الثلاث التي انهالت الأسئلة بحيالها على المفتي العام للسلطنة، ليبين موقف أصحابه منها، ويكشف فيها النقاب عن وجه الحقيقة، بمناقشتها ومعالجتها وفق رؤية قرآنية، مستمدة من أصفى ينابيع الحق، محتكمة إلى الكتاب العزيز، مع الحرص البالغ الذي كان منهجا للشيخ في أنه لا يخوض في مثل هذه القضايا الجانبية، لأن الحق أصفى وأبين من أن تكدر الشبهة صفوه أو تحجب نوره، والقضايا الثلاث هي:

أ- إنكار رؤية الله تعالى.

ب- القول بخلق القرآن.

ت- اعتقاد تخليد الفساق في النار.

- والحقيقة التي ينتهي إليها دارس الكتاب أن الشيخ جعل معوله على الكتاب فشفى النفوس من سقم وأزال ما بالعقول من تيه ووهم، وبخاصة في هذه القضايا الثلاث والتي أفاض فيها سماحة المفتي بعرضه أدلة كل فريق، وبحثها على ضوء قول الله عز وجل وقول رسوله صلى الله عليه وسلم، مع استلهام فهم مقاصدهما بالرجوع إلى قواعد اللسان العربي المبين وفق منهجية علمية أصولية مقاصدية محكمة، أعملت الأصول والقواعد التفسيرية واللغوية.

فحق أن ينشد في مثل نهجه الذي نهجه قول الشاعر:

فما ضل من كان القرآن دليله وما خاب من سير القرآن يسير

الاعتقاد بين المنهج والموضوع:

كثير هم أولئك الذين يظنون أن الإيمان مجرد موضوع وحسب، وقد يتوسلون مناهج غير منتجة في عرض قضايا التوحيد أو الكتابة فيه، لقد رأينا اعتماد البعض من هؤلاء منطق أرسطو حين الاستدلال، متخذين من هذا المنطق معيار العلم كما ورد في عنوان كتاب الغزالي رحمه الله، أو محكا للنظر في هذ المسائل الكبرى، ومن ثم يحملون الموضوعات العقدية مالا تحتمله، ويزنونها بغير ميزانها القرآني الذي أغنى من عيلة وشفى من سقم، ولقد رأينا في توسل المعتزلة لتلك الأقيسة المنطقية والأساليب اليونانية التي خاضت في الشأن الإلهي، ثم تبين من خوضهم في هذه المسائل كيف أنهم أبعدوا النجعة في إدراك الحقائق التي ورد بها الكتاب العزيز فيما يتعلق بأصول الاعتقاد أو جزئياته.

لقد قرر أهل الذكر والفكر من علماء هذ الأمة تلك القاعدة العلمية العظمى وهي أنه:"إذا كان إدراك الحقيقة على ماهي عليه في الواقع، علما، فإن المنهج المتخذ إلى ذلك الإدراك ينبغي أن يكون هو الآخر علما"[2].

- إن الملاحظ أن ورود المسائل العقدية في القرآن منهجا وموضوعا لا يماثل ورودها في كتب المتكلمين، فقد تجد هذه الكتب تعالج المسائل الخلافية غالبا، إلى جنب مسائل الاتفاق، هذه المسائل أصول أو الأمهات في العقيدة، والتي تحصر في الدرس العقدي وفق المذهبية السنية في "الأصول الستة"، وهي الواردة في حديث جبريل عليه السلام لما سأل النبي صلى الله عليه وسلم: ما الإيمان " قال: الإيمان أن تؤمن بـ

- الله ،

- وملائكته ،

[2] – محمد سعيد رمضان البوطي، كبرى اليقينيات الكونية، دار الفكر، دمشق، ط08، 1999م، ص31.

- وكتبه،
- ورسله ،
- واليوم الآخر،
- وتؤمن بالقدر خيره وشره"[3].

أو "الأصول التسعة" ، كما في المذهبية لدى الإخوة الإباضيين، وقد أورد تيغورين بن عيسى الملشوطي[4]، مجموعة الأصول عند الإباضية ، وحددها في عشرة، وتبعه على ذلك غيره، إلا أن عالما آخر في القرن العاشر، هو الشيخ أبو ساكن عامر بن علي الشماخي[5]، اختصرها إلى تسعة ، هذه الأصول العشرة هي:

- التوحيد.
- العدل.
- الأسماء والصفات.
- القضاء والقدر.

---

[3]- أخرجه مسلم من حديث عمر بن الخطاب (8)، وأخرجه أبو داود (4695) في كتاب "السنة" "باب في القدر"، وأخرجه الترمذي (690) في كتاب "الإيمان" "باب ما جاء في وصف جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم".

[4]- **تيغورين بن عيسى الملشوطي**: أحد علماء الإباضية، نشأ في مدينة آجلو جنوب الجزائر، عاش في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، له من المؤلفات "الأدلة والبيان": في أصول الفقه، وكتاب "الجهالات"، و"المعلقات في أخبار أهل الدعوة"، وكتاب "أصول الدين"، لجنة البحث العلمي: معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب، نشر جمعية التراث، القرارة، غرداية، الزائر، 1420هـ-1999م، ترجمة رقم221، وينظر امحمد بن يوسف اطفيش، شرح كتاب أصول الدين، ص ص33-38. ويرجع إلى: أصول الإيمان، مصطفى وينتن ومحمد بابا عمي، ص32.

[5]- **عامر بن علي بن عامر الشماخي أبو ساكن**، ت792هـ-1389م، من أعلام الإباضية بجبل نفوسة في ليبيا تخرج عليه علماء، ومن مؤلفاته المرجعية في الفقه كتابه: "الإيضاح"، وكتاب "متن الديانات"، ينظر: معجم أعلام الإباضية، ترمة رقم 529.

- السماء والأحكام.
- المنزلة بين المنزلتين.
- لا منزلة بين المنزلتين: ويقصد بها نفي منزلة السعادة والشقاء الأخرويين، فالعبد بين مصيرين: إما في الجنة، وإما في النار.
- الوعد والوعيد.
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- الولاية والبراءة.

فتراهم ينهجون لذلك منهجا يتمثل فيما يلي:

1- التوسع في جزئيات العقيدة والمجادلة فيما تضمنته من مفاهيم، ثم الترجيح لما انتهت إليه اجتهاداتهم.

2- ومن ثم إلزام الناس بما انتهوا إليه من هذه الاجتهادات والآراء، ولا نعني بالاجتهادات -كما ذكر- ما يندرج تحت ميدان المعتقدات القطعية ، وإنما المقصود هو نوع الافتراضات الإلزامية الظنية والجزئيات المندرجة تحت تلكم القطعيات، والمعلوم في القاعدة الذهبية أنه "لا تخطئة في ظني"[6].

ولو تتبع الدارس المصادر القطعية "القرآن الكريم"، و"السنة النبوية المتواترة"، وينظر تلكم المسائل التي كثر فيها الأخذ والرد والشد والجذب، بين فرق الأمة، من مثل مسألة خلق القرآن، أو مسألة "رؤية الله في الدار الآخرة"، فسيجد أنها لم ترد بمثل الكم والاهتمام الذي وجد في كتب علم الكلام، ولا هو مما صبت حياله الأنظار والفكر بتلك المحورية المركزية، ثم إنه حتى في القليل من الآيات التي عرضت لذكر مثل تلك المسائل سيلاحظ المتمعن ولو إمعانا بسيطا أنها لم ترد بصيغة منهجية جدلية إلزامية، ولم يرتبط بها مصير الإنسان[7].

---

[66] - ينظر: أصول الإيمان-التوحيد ووحدة الأمة، مصطفى وينتن، محمد بابا عمي، ط01، 2016م، ص16.

7 - المرجع نفسه، بتصرف، ص ص 16-17.

ولعل هذا الفهم الذي نذكره الآن هو الذي نحا نحوه الشيخ أحمد الخليلي، وذلك حين انتهى من سرد أدلة المثبتين والنافين لمسألة رؤية الله في الدار الآخرة، ثم نبه القارئ بعد العرض والمناقشة إلى أمرين اثنين راجيا أن يحظيا بالتفكير والتأمل[8]:

أولهما: أنك تجد في كتاب الله ماوعد به المؤمنين في الدار الآخرة من النعيم مذكورا بأصرح العبارات، ومكررا في مواضع شتى لأجل التشويق إليه، بينما لا تجد للرؤية ذكرا إلا ما يتأوله مثبتوها من لفظ الزيادة وأمثالها، وهو لم يذكر إلا مجملا، فهل ترى من المعقول–أنه لو كانت الرؤية ثابتة وهي أجل من كل نعيم في الجنة– أن يكتفى بمجرد هذه الإشارة الطفيفة إليها بينما تذكر المآكل والمشارب، والمساكن والمناكح، والحدائق والأنهار، وسائر المباهج والملذات الفينة بعد الفينة بعبارات واضحة لا تحتمل التأويل؟ [9].

وهذا مما أرى أنه من أكبر الملاحظ التي ينبغي أن تؤخذ بعين الاعتبار في فهمنا لكتاب الله سبحانه وتعالى، إذ أن معاقد الإيمان وأصوله، وما يترتب عليها من حكم بالكفر أو بالإيمان اعتقادا أو إنكارا، قد أفاض القرآن في ذكره والتنبيه عليه، ولم يترك الأنظار تختلف حوله من خلال إشارات أو ومضات تحتمل وتحتمل، وهذا مما يستطيع أن يستقرئه التالي لكتاب الله عز وجل.

8- **الأمر الثاني**: هو ماذكره الله في كتابه"الحق الدامغ"، من قصة عبده وخليله إبراهيم، وهو يقيم الحجة على قومه الذين كانوا يعبدون الأجرام السماوية، بما ينتزعه من الأدلة على بطلان ألوهيتها من واقع حالها، إذ كانت تتحول من حال إلى حال تظهر تارة وتختفي أخرى...وإنما اقتصرنا على ذكر الأول للحاجة إلى التدليل.

[99] - .الحق الدامغ، أحمد بن حمد الخليلي، مسقط، سلطنة عمان، ط01، 2017م، ص ص 98-99.

سبب تأليف الكتاب:

لو تأملنا أي شيء كان ينهز الشيخ الخليلي لكي يؤلف هذا الكتاب "الحق الدامغ"، لتبين أنها جملة من الأمور تدفع وتؤز المتكلم بلسان طائفة أو فرقة من فرق المسلمين إلى حتمية التكلم والدفاع، ذلك على الرغم من أنه ذكر الاعتبارات الوجيهة التي تترك أهل الذكر والفكر والناصحين للأمة جميعا يتجاوزون مثل هذه الخلافات التي شغل بها الأجداد وسرت في غفلة من الزمن إلى الأحفاد، فأخذوا يلوكونها في مجالسهم متباهين تارة بتصيد النصوص، ونشدان الغلبة، واللعب بالألفاظ، ومتشاكسين تارة أخرى في ضجيج من الخصومة السافرة التي يعسر من ورائها البحث عن الحقيقة، ولو أمكن الوصول إليها فإنه يصعب الاقتناع بها.

يقول الغزالي –رحمه الله-: "وعفا الله عن أجدادنا، فقد أُولِعُوا بذلك، وأعانهم عليه أن الدولة الإسلامية كانت سيدة العالم.

فلا بأس على رجالها أن يشتغلوا بالترف العقلي، وأن يحولوا فراغهم من الجهاد في سبيل الله إلى الجهاد في هذا الميدان الخطر، فانشغلوا بأنفسهم عن أعدائهم، ثم ذهب الرجال وبقي الجدال .. بقي إلى اليوم يهدد وحدة الأمة ويهز كيانها!

ومع أن الدولة الإسلامية جثت على قدميها أمام الصليبية الغازية، واقترب الخطر على الإسلام من صميم عقائده وصميم دياره، فإن الريح النتنة لهذا الجدل ما تزال تهب من بعض الجماعات التي تحترف –للأسف الشديد-خدمة الإسلام.

ولا أحسب أمة تحتاج إلى وحدة الأفكار والمشاعر مثل هذه الأمة الإسلامية. فإذا نشب خلاف على شيء ما، فإن تحويل هذا الخلاف من الأدمغة المفكِّرة إلى صفوف الأمة، يُعد جريمة في حق الله ورسوله ﷺ وجماعة المسلمين .." [10]

10 – عقيدة المسلم، محمد الغزالي، دار القلم ، دمشق،ط10، 1420هـ-1999م، ص07.

ومع ما لاحظه الرجل من تهجم فئة من المسلمين بدعوى امتلاكهم الحقيقة وأنهم الفرقة الناجية، وادعاء خواء الآخر منها، وتكفير الإباضيين لقولهم ببعض المسائل التي خالفوا فيها فئات من المسلمين، ووصول الأمر حد استتابة الشباب الإباضي بدعوى أنهم كفروا باعتقادهم غير ما تعتقده تلكم الفئة ...من القضايا الثلاث وهي: "إنكار رؤية الله تعالى، والقول بخلق القرآن، واعتقاد تخليد الفسَّاق في النار ".

إن أهم ما تذرع به أولئك الذين أصدروا فيهم تلك الأحكام الرهيبة ، وعاملوهم بهاتيك المعاملة النكراء هذه القضايا التي كان للإباضية فيها موقف لم يتفق مع رغبات أولئك الحاقدين ، فعدوا كل قضية منها مبررة للحكم عليهم بالكفر وقطع حبال الصلة بينهم وبين سائر الأمة مع أن الإباضية لم ينفردوا بموقفهم دون سائر طوائف الأمة ، فثم الكثير من الذين رأوا في هذه القضايا رأيهم وأيدوا موقفهم كما سيتضح ذلك من خلال هذه الدراسة إن شاء الله ، على أنهم في كل قضية منها أخذوا بحجز النصوص القرآنية والسنة الثابتة عن الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام.

وقد كنت حريصاً من قبل على عدم الخوض في مثل هذه القضايا الجانبية وعدم اتخاذ موقف من هذه المهاترات إلا الصمت، فالحق أصفى وأبين من أن تكدر الشُّبَهُ صَفْوَه أو تحجب نوره.

ولكني رجَّحت جانب الرد على الصمت تبياناً للحث ودفاعاً عن الحقيقة، ووقوفاً في وجوه الذين يضرمون الفتن ويؤججون الأحقاد بهذه المحاولات، لتمزيق شمل الأمة وتفتيت وحدتها، إذ لا يعلم إلا الله عاقبة هذه الفتنة إذا اضطرمت نارها وحَمِيَ أوارها والعياذ بالله[11].

11- الحق الدامغ، أحمد الخليلي، ص ص 22-23.

المنطق القرآني في مسألة خلود أهل الكبائر في النار:

من دون الخوض في الدلائل والبراهين التي عمد إلى ذكرها فريق المثبتين وفريق النافين لمسألة الخلود في النار لأصحاب الكبائر، لأن المقام لا يسمح في مقالة كهذه، فإننا نود أن نذكر ما استنطقه الشيخ الخليلي من الأدلة القرآنية على جملة أمور قد يغفل عنها الكثير وهم يبدئوون ويعيدون في مسألة الخلود في النار، ولعل من أجلى تلك الملاحظات التي تستدعي وقفة وتأملا جملة من العوامل تتمثل فيما يلي:

1- **العامل التاريخي**: والمتمثل في الربط بين جملة مفاهيم وردت عن الأولين، قالت بها وبنفس المنطق من لسان الحال أو المقال الأمم بعدهم، لأن حال البشر متشابه في المسلك والأخلاق والتبرير لمثل تلك المسالك والتصرفات، وما ذكر القرآن أحوال الأمم من قبلنا إلا وهو يريد أن نأخذ منهم العبر والعظات اللازمة، وبعد أن قرر الشيخ الخليلي أدلة الكل ليعقب عليها بما فاض به وسعه وعلمه، نراه يقول:" لا ريب – أخي القارئ الكريم – أنك بعد هذا التطواف بين هذه الأدلة وفحصك إياها بعين البصيرة أدركت أن عقيدة القائلين بخلود أصحاب الكبائر في النار ، التي أنكرها من أنكرها عليهم وحكم عليهم من أجلها بالكفر ، هي العقيدة التي نطق بها القرآن ، ودعمتها الأحاديث الصحيحة الصريحة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فهي العقيدة التي يجب على المسلم أن يعتصم بحبلها وأن يلقى الله عليها ، كيف وقد عزا القرآن الكريم ما يخالفها إلى اليهود ، وأنكره عليهم ، وقرر أنه منشأ انحرافهم عن الحق حيث قال: (ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات) آل عمران 24؟

2- **العامل النفسي**: وهو ذلك المتمثل في التبري والاعتذار الحاصل من لدن العصاة ومرتكبي الكبائر، حين يستمرئون ماهم عليه بدعوى أن المغفرة هي المنتهى في كل حال، يقول الخليلي: "ومن أمعن النظر في أحوال الناس يتبين له أن اعتقاد انتهاء عذاب العصاة إلى أمد، وانقلابهم بعده إلى النعيم جرّأ هذه الأمة – كما جرّأ اليهود من قبل – على انتهاك

حرم الدين ، والتفصّي عن قيود الفضيلة ، والاسترسال وراء شهوات النفس ، واقتحام لجج أهوائها [12].

3- **العامل الواقعي**: والمتمثل في استشراء المعاصي والذنوب صغيرها وكبيرها، تحت هذا المبرر المذكور آنفا، "ولا أدل على ذلك من ذلك الأدب الهابط الذي يصور أنواع الفحشاء، ويجلّيها للقراء والسامعين في أقبح صورها وأبشع مظاهرها ، وقد انتشر هذا الأدب في أوساط القائلين بالعفو عن أهل الكبائر، أو انتهاء عذابهم إلى أمد، انتشاراً يزري بقدر أمة القرآن، وغلب على المؤلفات الأدبية، مطولاتها ومختصراتها ، كالأغاني، ومحاضرات الأدباء، والعقد الفريد، حتى كاد الأدب يكون عنوانا على سوء الأدب.

وقد صان الله من ذلك أدب أصحاب العقيدة الحقة "يقصد الإباضية" ، الذين رسخ في نفوسهم ما جاء به القرآن من أبدية عذاب أهل الكبائر المصرّين كأبدية المطيعين المحسنين ، كما صان الله سلوكهم ، وطهر وجدانهم ، وسلّم سرائرهم من الاستهانة بحرمات الله تعالى ، والاستخفاف بأحكامه الزاجرة ، ولو قلّبت صفحات أدبهم لوجدتهم – في شعرهم ونثرهم – كما يقول الأستاذ أحمد أمين:(لا يعرفون خمراً ولا مجوناً ، فلا تجد في أدبهم خمراً ولا مجوناً)[13]" [14].

---

[12] – الحق الدامغ، ص 227.

[13]– ضحى الإسلام ج3 ص342 ط مكتبة النهضة المصرية.

[14]– الحق الدامغ، ص ص 227-228.

يقول الشيخ الخليلي: ولست أنسى ما قاله لي الداعية الكبير العلاّمة المنصف الشيخ عبد المعز عبد الستار: (لو أن الأمة أخذت بعقيدتكم في خلود صاحب الكبيرة في العذاب، لكان لها شأن في الصلاح والاستقامة والنزاهة والعفاف غير ما نراها عليه)، وقال لي مثل هذا الشيخ محمد بن زكي بن إبراهيم رائد العشيرة المحمدية بمصر: ليتنا أخذنا بآرائهم في اعتبار الغيبة والنميمة مفطرة للصوم ناقضة للوضوء، وقد أشرت إلى ذلك في كتابي "الولاية والبراءة" اهـ مراجعه أبو الحسن.

النتائج:

- امتاز الإباضية في مباحث العقيدة وطريقتهم في فهم أصول الدين بأشياء ثلاثة تميزت بأنها قرآنية استمدادا واستنادا:

4- سلامة المنزع.

5- عدم التعصب.

6- المرونة والتسامح في معاملة سائر فرق الأمة.

- منهج الشيخ عدم في مثل هذه القضايا الجانبية، لأنه كان يدرك أن هناك من القضايا ماهو أولى وأجدر بالمعالجة والمناقشة.

- جعل الشيخ معوله في الاستدلال على الكتاب "القرآن الكريم"، فشفى النفوس من سقم وأزال ما بالعقول من تيه ووهم، وبخاصة في القضايا الثلاث المذكورة في صلب البحث، والتي أفاض فيها سماحة المفتي بعرضه أدلة كل فريق، وبحثها على ضوء قول الله عز وجل وقول رسوله صلى الله عليه وسلم.

- كان الخليلي وهو ينافح ويجادل عن القضايا المذكورة، ممن يستلهمون فهم المقاصد، بالرجوع إلى قواعد اللسان العربي المبين وفق منهجية علمية أصولية مقاصدية محكمة، أعملت الأصول والقواعد التفسيرية واللغوية.

- كما أن روح المعاصرة تتجلى في الشيخ الخليلي، الذي لم يكن يهمل جملة الملابسات والسياقات التي تمر بها الأمة، وكان يستفيد من مفاهيم العصر لتدعيم تفسيره للقضايا العقدية وفق منطق قرآني.

المصادر والمراجع:

- كبرى اليقينيات الكونية، محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق، ط08، 1999م.
- معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب، لجنة البحث العلمي: نشر جمعية التراث، القرارة، غرداية، الزائر، 1420هـ-1999م.
- الحق الدامغ، أحمد بن حمد الخليلي، مسقط، سلطنة عمان، ط01، 2017م.
- عقيدة المسلم، محمد الغزالي، دار القلم ، دمشق،ط10، 1420هـ-1999م.
- ضحى الإسلام، أحمد أمين، طبعة مكتبة النهضة المصرية.